



أكاديمية رسوخ

تدرج وإتقان

لقاء

مكانة علوم العربية وحاجة طالب العلم إليها

فضيلة الشيخ

محمد بن سعيد المري

مكانة علوم العربية وحاجة طالب العلم إليها

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

مكانة علوم العربية

فهذا لقاء عن مكانة العربية وحاجة طالب العلم إليها، وعلم اللغة علم جليل القدر، غزير الفائدة، كثير الفائدة على طالب العلم، وكيف لا، وهو اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم، وتكلم به النبي صلى الله عليه وسلم، فهو من أصل علوم الشريعة وأغلقها بالكتاب والسنة، وإذا كانت الشريعة عربية فإنه لا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم؛ لذا فمن تعلم اللغة العربية ابتغاء فهم الكتاب والسنة وتعلم الشريعة، فإنه يظفر بما ورد في فضل طلب العلم الشرعي من أدلة الكتاب والسنة.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بالعربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"؛ لذلك فإنه لا يستغني عن علوم العربية متفقه، ولا حديثي، ولا طالب لأي علم من علوم الشريعة، فما من علم من علوم الشريعة إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع، ومكشوف لا يتقنع، ووجه هذا الافتقار البين المكشوف: أن معاني هذه العلوم لا تعرف على الحقيقة إلا بمعرفة ألفاظها، والوصول إلى معرفة ألفاظها: علم العربية، وواقع حال العلوم الشرعية يشهد بأنه كلما كان طالب العلم الشرعي أكثر تبخرًا في علوم العربية كان فهمه للعلوم الشرعية ونزعه لمعانيها أقرب وأضبط.

وعلماء أصول الفقه ينصون في كلامهم عن شروط الاجتهاد على أن من شروط المجتهد أن يكون عنده قدر صالح من علوم العربية يستعين به على فهم الكتاب والسنة، بل يقول الشاطبي: "لو فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو

متوسِّطاً فهو متوسِّطٌ في فَهْمِ الشريعة"، قال: "فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة"، وقد قال الجرمي: "أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيويه" أي منذ ثلاثين سنة يُفتي الناس في الحلال والحرام من كتاب سيويه، وقد فسَّروا ذلك بأنَّه كان صاحب حديث، وكتاب سيويه يُتعلَّم منه النظر والتفتيش، فالعلمُ باللغة يُعِينُ على فَهْمِ الأدلة واستنباط الأحكام منها استنباطاً صحيحاً، فلا يستغني عن علم العربية طالب علم أصول الفقه، ولا طالب علم الفقه.

حاجة طلاب العلم لعلوم العربية

1. حاجة طلاب الفقه لعلوم العربية:

بل إنَّ ثَمَّ مسائلَ فقهيةً من سبب الخلاف فيها اختلافُهم في الإعراب؛ كحديث: "ذَكَاةُ الجنينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ" فمن قرأ: "ذَكَاةُ الجنينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ" بالرفع، قال: إذا ذُكِّيتِ الشاةُ مثلاً، فخرج الجنينُ من بطنها ميتاً فهو حلال؛ لأنَّ ذَكَاةَ أُمِّهِ ذَكَاةُ له، وهذا مذهب الجمهور، خلافاً للحنفية الذين قالوا إنه ميتة، وقرأوا الحديث بالنصب: "ذَكَاةُ الجنينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ" فهنا كلمة "ذَكَاة" الثانية منصوبة بنزع الخافض، والتقدير: ذَكَاةُ الجنينِ إذا خرج حياً كذَكَاةِ أُمِّهِ، فإذا خرج ميتاً فهو حرام لا يُؤْكَلُ، ومن سبب الخلاف في هذا بين الفقهاء اختلافُهم في ضَمَّةٍ وفتحة.

2. حاجة طالب الحديث لعلوم اللغة:

وكذلك طالبُ علم الحديث لا يستغني عن علم اللغة، وقد قال الأصمعي: "أَخَوْفُ ما أخافُ على طالبِ العلمِ إذا لم يَعْرِفِ النَّحْوَ أن يدخلَ في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»، قال: "لأنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يلحن، فمهما رَوَيْتَ عنه وَلَحَنْتَ فيه كَذَبْتَ عليه"، وقد قال العراقي في أُلْفِيَّةِ الحديث:

وَلِيَحْذَرَ اللَّحَّانُ وَالْمُصَحِّفَا عَلَى حَدِيثِهِ بَأْنَ يُحَرِّفَا
فِيَدْخُلَا فِي قَوْلِهِ: مَنْ كَذَبَا فَحَقُّ النَّحْوِ عَلَى مَنْ طَلَبَا

وفي "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب البغدادي ترجم بقوله:
"التَّغْيِبُ فِي تَعْلُمِ النَّحْوِ وَالْعَرَبِيَّةِ لِأَدَاءِ الْحَدِيثِ بِالْعِبَارَةِ السَّوِيَّةِ"، وأخرج فيه عن وكيع
-رحمه الله- أنه قال: "أَتَيْتُ الْأَعْمَشَ أَسْمَعُ مِنْهُ الْحَدِيثَ، وَكُنْتُ رُبَّمَا لَحَنْتُ، فَقَالَ لِي:
تَرَكْتَ مَا هُوَ أَوْلَى بِكَ مِنَ الْحَدِيثِ، فَقُلْتُ: أَيُّ شَيْءٍ أَوْلَى مِنَ الْحَدِيثِ؟ فَقَالَ: النَّحْوُ،
قَالَ وَكَيْعٌ: فَأَمَلَى عَلَيَّ الْأَعْمَشُ النَّحْوَ، ثُمَّ أَمَلَى عَلَيَّ الْحَدِيثَ".

وفيه: "أنَّه جاء سيبويه إلى الخليل، فشكا إليه حمَّاد بن سَلَمَةَ، قال: "سألتُه عن
حديث هشام بن عروة عن أبيه في رجلٍ رَعَفَ -قالها بضم العين-، قال: فانتهرني وقال
لي: أخطأت، إنما هو "رَعَفَ" -بفتح العين- فقال له الخليل: صدق، أتلقي بهذا الكلام
أبا سَلَمَةَ؟".

وفيه: "أنَّ أبا زيد النَّحْوِيَّ قال: "كان الذي حداني على طلب الأدب والنحو
أني دخلت على جعفر بن سليمان فقال: اذنه فقلت: "أنا دني" فقال: يا بُني، لا تقل:
أنا دني، ولكن قل: أنا دان" في أخبار كثيرة ذكرها الخطيب البغدادي في هذا الموضع.

3. حاجة طالب العقيدة لعلوم العربية:

وكذلك دارس علم الاعتقاد حاجته إلى العربية بينة، فالجهل بها كان سبب وقوع
كثير من البدع والانحرافات، قال أبو عمرو بن العلاء: "أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم
بالعربية"، وقال الحسن البصري: "أهلكتهم العجمة".

وحمة الكِنَانِي في كتابه "الحيدة" لما ردَّ على المنحرف بين أن سبب ضلاله هو الجهل
بسُنَنِ كلام العرب، وعثمان بن سعيد الدارمي كان يردُّ على بشر المريسي فساد معتقده
باللغة، وقال في رده: "فإن كنت لا تحسن العربية فسل من يحسنها، ثم تكلم".

4. حاجة طالب التفسير والقراءات لعلوم العربية:

وكذلك في التفسير؛ وقد قال الإمام مالك: "لا أُوتَى برجلٍ يُفسِّر القرآنَ وهو لا يَعْرِفُ العَرَبِيَّةَ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا"؛ وذلك لأنَّ القرآنَ نَزَلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، فكيف يُؤْمَنُ على تفسير القرآن مَنْ لا يُؤْمَنُ على اللسانِ العربيِّ؟! وكذلك في القراءاتِ، وفي علوم القرآنِ ما أَكثَرَ المسائلَ التي يُحَالُ فيها على النَّحْوِ واللُّغَةِ، والتي لا يَفْهَمُهَا إِلَّا مَنْ دَرَسَ العَرَبِيَّةَ.

وَمِنْ أَمْثَلَتِهَا فِي عِلْمِ الْوَقْفِ وَالْإِبْتِدَاءِ: أَنَّ مِنْ قَوَاعِدِ الْوَقْفِ أَنَّهُ لَا يُوقَفُ عَلَى الْمُضَافِ دُونَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهِ، وَلَا عَلَى الْمَنْعُوتِ دُونَ النَّعْتِ، وَلَا عَلَى الرَّافِعِ دُونَ الْمَرْفُوعِ، وَلَا عَلَى النَّاصِبِ دُونَ الْمَنْصُوبِ، وَلَا عَلَى الْمَبْدَلِ مِنْهُ دُونَ الْبَدَلِ، إِلَى آخِرِ مَا يَذْكُرُونَهُ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مُصْطَلَحَاتُ نَحْوِيَّةٌ لَا يَتَبَيَّنُهَا إِلَّا مَنْ تَعَلَّمَ النَّحْوَ وَعَرَفَ مُصْطَلَحَاتِهِ؛ لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا تَكُونَ الْعَرَبِيَّةُ بِعُلُومِهَا أَهْوَنَ مَنَظُورٍ إِلَيْهِ عِنْدَ طَالِبِ الْعِلْمِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُؤَلِّمَهَا عِنَايَتَهُ وَيَجِدَّ فِي تَحْصِيلِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدَتْ عِلْمًا بِاللُّغَةِ ازْدَدَتْ فَهْمًا لِلْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَلَا يَقِفُ ذَلِكَ عِنْدَ حَدٍّ.

أهم علوم العربية لطالب العلم

وعلوم العربية كثيرة، أهمها أربعة علوم، هي:

1. النحْو.
2. الصَّرْف.
3. البلاغة.
4. علم مَتْنِ اللُّغَةِ.

ووجه هذه القسمة: أَنَّ اللِّسَانَ العربيَّ مُفْرَدَاتٌ وتراكيبٌ، وَكُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا يُنْظَرُ إليه من جهةٍ مَبْنَاهُ ومن جهةٍ مَعْنَاهُ، فَالنَّظَرُ إلى الكلمةِ المفْرَدَةِ من جهةٍ مَبْنَاهَا هو مُتَعَلِّقُ عِلْمِ الصَّرْفِ، وَمِنْ جهةٍ مَعْنَاهَا هو مُتَعَلِّقُ عِلْمِ الغَرِيبِ -عِلْمِ مَتْنِ اللُّغَةِ-، وَالنَّظَرُ إلى الكلامِ المَرْكَبِ من جهةٍ مَبْنَاهُ هو مُتَعَلِّقُ عِلْمِ النِّحْوِ، وَمِنْ جهةٍ مَعْنَاهُ هو مُتَعَلِّقُ عِلْمِ البلاغةِ.

وهذه العلوم تُدْرَسُ بتدرُّجٍ، بل العِلْمُ كُلُّهُ درجاتٌ وَمَنَاقِلُ وَرُتَبٌ يَدْرُسُهَا طَالِبُ العِلْمِ شيئاً فشيئاً حتى يُحْكِمَهَا وَيَفْهَمَهَا فَهْمًا صَحِيحًا، ثُمَّ يَبْنِي التَّالِي عَلَى الْأَوَّلِ، وَهَكَذَا حَتَّى يَكْتَمِلَ الْبِنَاءُ، وَالْمَرْحَلَةُ الْأُولَى فِي الْفُنُونِ الْمَقْصُودُ بِهَا: إِعْطَاءُ تَصَوُّرٍ عَامٍّ عَنِ الْفَنِّ وَأَبْوَابِهِ وَمُهِمَّاتِ مَسَائِلِهِ، وَتُجَنَّبُ كُتُبُ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ ذِكْرَ الْخِلَافِ وَالْإِطَالَةِ فِي الِاسْتِدْلَالِ وَالتَّعْلِيلِ.

منهجية دراسة علم النحو:

المرحلة الأولى:

والجاذبة في علم النحو: البدء بمن "الآجرومية" لابن آجروم، وهو متن كتبه له القبول بين أهل العلم وطلابه، ومن أحسن أنظامه: نظم محمد بن أبي المزمري التواتي - رحمه الله-، وهي منظومة نافلة تمتاز بسلاستها وحسن سبكها، ووفائها بما في النثر، وعناية ناظمها بالأمثلة واختصارها؛ إذ إنها تقع في مئة وبضعة وخمسين بيتاً، وبعض من نظم الآجرومية زاد نظمه على المتين، والنظم أسهل في الحفظ من النثر، وأيسر في الاستحضار، وأعلق بالذهن، قال ابن أبي الحديد في نظم الفصيح:

وأسهل المحفوظ نظم الشعر لأنه أخضر عند الذكر
أي: عند التذكر، وقال السقاري:

وصار من عادة أهل العلم أن يعتنوا في سبر ذا بالنظم
لأنه يسهل للحفظ كما يروق للسمع، ويشفي من ظما

لذلك نظم محمد بن أبي الآجرومية، كما قال في ديباجتها:

وبعد فالقصد بدا المنظوم تسهيل منثور ابن آجروم
لمن أراد حفظه وعسراً عليه أن يحفظ ما قد نثراً

والمنهجيات ليست توقيفية، فمن الكتب الحديثة التي قد تدرس في هذه المرحلة بدّل الآجرومية أو نظمها: كتاب "النحو الصغير" للشيخ سليمان العيوني - حفظه الله-، وهو كتاب نافع صنفه للمبتدئين، وحرص على حسن ترتيبه، ووضوح عبارته، وسهولة مضمونه، وقد كان له ذلك، وقد استفاد منه كثير من طلبة العلم، وصاروا بعد دراسته يجدون حلاوة علم النحو، ويحرصون على الاستزادة منه؛ لأن من فهم شيئاً حرص على الاستزادة منه، والتوسع في أبوابه، والخوض في مسائله، وقد نظم الشيخ في "وحي المنام" في مئة بيت.

المرحلة الثانية:

ثمَّ ينتقلُ الطَّالِبُ إلى المرحلةِ الثانيةِ، والمُرَشَّحُ للدراسةِ فيها: متنُ "قَطْرِ النَّدى وَبَلِّ الصَّدى" للعلامةِ ابنِ هشامِ الأنصاريِّ -رحمه الله-، وهو من المتونِ المختصرةِ النَّافعةِ، تميَّزَ بدقَّةِ العبارةِ مع وفرةِ المسائلِ، فما اعتنى به طالبُ عِلْمٍ فَفَهِمَ مسائلَهُ وضبطَهَا إِلَّا وَجَدَ لَهُ عَظِيمَ الأثرِ فِي فَهْمِهِ النَّحْوِ؛ ولعظيمِ منفعتِهِ لا تكادُ تَجْدُ عالِمًا لَهُ عنايةٌ بالنَّحْوِ إِلَّا وهو كثيرُ الإطراءِ لَهُ والثناءِ عَلَيْهِ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ جَهَةً من الجهاتِ لها عنايةٌ بالنَّحْوِ إِلَّا ومن مقرَّراتِها شرحُ ابنِ هشامٍ على متنِهِ هذا، وقد ذَكَرَ ابنُ هشامٍ -رحمه الله- في دِيباجةِ شرحِهِ أَنَّ ما كَتَبَهُ على متنِ "قَطْرِ النَّدى" وافٍ بِبُغْيَةِ مَنْ جَنَحَ من طُلَّابِ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ إِلَيْهِ.

المرحلة الثالثة:

ثمَّ ينتقلُ إلى المرحلةِ الثالثةِ فيدرُسُ: الخُلاصةَ المشهورةَ بـ "أَلْفِيَّةِ ابنِ مالِك"، وقد حظيت هذه الألفيَّةُ بقبولٍ واسعٍ لدى أهلِ العِلْمِ وطُلابِهِ؛ لما امتازت به من سهولةِ اللفظِ، وإحكامِ الوضعِ، وحُسْنِ الترتيبِ، وجودةِ السَّبكِ، والإحاطةِ بِمَهَمَّاتِ مسائلِ النَّحْوِ ومسائلِ صرفِ الأسماءِ، كلُّ ذلك مع الإيجازِ، وقد كَثُرَ إقبالُ العلماءِ على أَلْفِيَّتِهِ هذه حتى طُويَ ذِكْرُ كثيرٍ من المصنَّفاتِ قبلَهُ، حتى إِنَّه لو لم يُشَرِّ في مقدِّمتِها إلى أَلْفِيَّةِ ابنِ مُعْطٍ التي كانت مشتهرةً في وقْتِهِ، ما عَرَفَهَا كثيرٌ من المتخصِّصين فضلًا عن غيرهم، وقد كَثُرَت عنايةُ العلماءِ بِها ما بين شارِحٍ، وناثِرٍ، ومُعَرِّبٍ، ومُختَصِرٍ، وما ذاك إِلَّا لعظيمِ فائدتِها.

علم الصرف، ومنهجية دراسته:

العِلْمُ الثاني: عِلْمُ الصَّرْفِ، والْفَرْقُ بينهُ وبينَ النَّحْوِ: أَنَّ الصَّرْفَ يَدْرُسُ بِنِيَّةَ الْكَلِمَةِ واختلافها باختلاف المعاني التي تدلُّ عليها فمثلاً: ضَرَبَ، إِذَا حَوَّلَتْهَا إِلَى لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى مَنْ فَعَلَ الضَّرْبَ تقول: "ضارب"، وَلِمَنْ فَعَلَهُ بكثرة: "ضَرَّاب"، وَلِمَكَانِهِ: "مَضْرِب"، ولِاسْمِ الْمَفْعُولِ مِنْهُ - أي لمن وقع عليه الضَّرْبُ - "مضروب" وهكذا، فالصَّرْفُ يَدْرُسُ بِنِيَّةَ الْكَلِمَةِ، أَمَّا النَّحْوُ فَيَدْرُسُ أَوَاخِرَ الْكَلِمَاتِ فِي حَالِ تَرْكِيبِهَا مِنَ الْإِعْرَابِ وَالْبِنَاءِ كَمَا قَالَ فِي التَّصْرِيفَةِ:

تَصْرِيفُنَا يَدْرُسُ بِنِيَّةَ الْكَلِمِ وَالنَّحْوُ يَدْرُسُ الْكَلَامَ الْمُنْتَظَمَ

وعِلْمُ الصَّرْفِ الْكَلَامُ فِيهِ أَقَلُّ مِنَ الْكَلَامِ فِي النَّحْوِ، وَالْحَاجَةُ فِيهِ إِلَى الْحِفْظِ أَكْثَرُ مِنَ حَاجَةِ النَّحْوِ إِلَى الْحِفْظِ، وَحَاجَةُ النَّحْوِ إِلَى الْفَهْمِ أَكْثَرُ مِنَ حَاجَةِ الصَّرْفِ إِلَى الْفَهْمِ، وَكُلُّ الْعُلُومِ لَا تَسْتَغْنِي عَنِ الْحِفْظِ وَالْفَهْمِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ عَنِ النَّسْبَةِ، وَالْغَالِبُ أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَا يَدْرُسُ عِلْمَ الصَّرْفِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ دَرَسَ مَتْنًا فِي عِلْمِ النَّحْوِ أَوْ أَكْثَرَ، فَيَكُونُ قَدْ حَصَلَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَمَتَوْنُ الْمُبْتَدِئِينَ فِي الصَّرْفِ كَثِيرَةٌ وَفِي كُلِّهَا خَيْرٌ، وَمِنْ أَحْسَنِهَا: "الصَّرْفُ الصَّغِيرُ" لِلشَّيْخِ الْعُيُونِيِّ -حَفَظَهُ اللَّهُ-، وَهُوَ -عَلَى اخْتِصَارِهِ- جَامِعٌ لِأَصُولِ عِلْمِ الصَّرْفِ وَمَهَمَّاتِهِ؛ مِنَ الْمِيزَانِ الصَّرْفِيِّ، وَأَبْنِيَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْأَحْكَامِ الصَّرْفِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِالْفِعْلِ، وَالْخَاصَّةِ بِالْإِسْمِ، وَالْمَشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْإِسْمِ، وَقَدْ نَظَّمَهُ فِي "التصريفة" وَهِيَ مَنْظُومَةٌ نَافِعَةٌ فِي مَعْنَى بَيْتٍ، وَهِيَ كَفِيلَةٌ لِمَنْ أَخَذَهَا بِجِدِّ بَضْبِطِ أَصُولِ عِلْمِ الصَّرْفِ.

ثمَّ ينتقلُ إلى المرحلة التي بعدها، وهي: "لامِيَّةُ الأفعال"، مع ما في أَلْفِيَّةِ ابنِ مالِكٍ من صرفِ الأسماءِ، و"لامِيَّةُ الأفعالِ" منظومةٌ لابنِ مالِكٍ صاحبِ الألفِيَّةِ، بيَّنَ فيها أوزانَ الفعلِ وتصاريْفَه، وكذلك ما أُحِقَّ بالأفعالِ من الأسماءِ، وأراد أن يتِمَّ بها ما وقعَ من النقصِ في التَّصريفِ في الألفِيَّةِ، وقد أحاطَ نَظْمُه هذا بالمهمِّ من الفنِّ، كما قال في أوَّلِه:

وَهَاكَ نَظْمًا مُحِيطًا بِالْمُهِمِّ وَقَدْ يَحْوِي التَّفَاصِيلَ مَنْ يَسْتَحْضِرُ الْجُمْلَا

فإذا جَمَعَ إليها صرفَ الأسماءِ مِنْ أَلْفِيَّةِ ابنِ مالِكٍ، فقد أحاطَ بِالْمُهِمِّ من صرفِ الأفعالِ وصرفِ الأسماءِ.

علم البلاغة، ومنهجية دراسته:

العِلْمُ الثَّالِثُ: عِلْمُ الْبَلَاغَةِ، وهو يُدرَسُ بعدَ دراسةِ شيءٍ في النَّحوِ والصَّرْفِ، وبهذا العِلْمِ تُعرَفُ أسرارُ العَرَبِيَّةِ وتُبرَزُ دقائقُها، وَمِنْ أَجْلِ مقاصِدِ عِلْمِ الْبَلَاغَةِ: الْوُقُوفُ عَلَى بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ، وَأَنْ تَضَعَ يَدَكَ عَلَى مَوَاضِعِ الْإِعْجَازِ فِيهِ، فهذا العِلْمُ يُمِيطُ اللَّثَامَ عَنْ وَجْهِ الْإِعْجَازِ الْبَلَاغِيِّ فِي الْقُرْآنِ، وَيُجَلِّي مُحَاسِنَ النِّظْمِ الَّتِي جَاءَ عَلَيْهَا هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ، وَقَدْ عَدَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ الْعِلْمَ بِالْبَلَاغَةِ شَرْطًا فِي الْمَفْسَرِ، وَمِنْ غَايَاتِهِ وَفَوَائِدِهِ: تَذَوُّقُ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وَتَمْيِيزُ جَيِّدِ الْقَوْلِ مِنْ رَدِيئِهِ، فَعِلْمُ الْبَلَاغَةِ هُوَ مَعْيَارُ النَّقْدِ الْكَاشِفُ عَنْ خِصَائِصِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وَمِنْ فَوَائِدِهِ: اقْتِدَارُ دَارِسِهِ عَلَى تَأْلِيفِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وَمَعْرِفَةُ مَا يُلَائِمُ السِّيَاقَ مِنْ تَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ، أَوْ ذِكْرٍ أَوْ حَذْفٍ.

ومع شرفِ هذا العِلْمِ، إِلَّا أَنَّ الْعَنَاءَ بِهِ قَلِيلَةٌ بَيْنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، فَهُوَ كَمَا قَالَ الْبَاقَلَانِيُّ: "عِلْمٌ قَلِيلُ الطَّلَافِ، ضَعِيفُ الْأَصْحَابِ، لَيْسَتْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَحْمِيهِ، وَلَا أَهْلٌ عِصْمَةٌ تَفْطِنُ لِمَا فِيهِ"، مع جلالِ قدرِهِ وِغْزَارَةِ فَائِدَتِهِ.

ومتونُ المبتدئينَ فِي عِلْمِ الْبَلَاغَةِ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: "مِئَةُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ" لِابْنِ الشَّحْنَةِ، وَقَدْ حَذَا فِيهَا نَازِمُهَا حَدَوْ كِتَابِ "تَلْخِصِ الْمِفْتَاحِ" لِلْخَطِيبِ الْقَزْوِينِيِّ، فَنَظَّمَ مَبَاحِثَهُ الْعَامَّةَ وَكَثِيرًا مِنْ مَسَائِلِهِ التَّفْصِيلِيَّةِ، وَمَنْظُومَتُهُ هَذِهِ عَلَى وَجَازَتِهَا -إِذْ إِنَّهَا تَقَعُ فِي مِئَةِ بَيْتٍ- تَقِفُ بِكَ عَلَى عُلُومِ الْبَلَاغَةِ الثَّلَاثَةِ: الْمَعَانِي، وَالْبَيَانِ، وَالبَدِيعِ، وَالْمَهَمُّ مِنْ مَسَائِلِهَا الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَهَا طَالِبُ هَذَا الْفَنِّ، وَفِي مَرَحَلَتِهَا: "مِئَةُ الْبَلَاغَةِ" فِي مِئَةِ بَيْتٍ كَذَلِكَ، وَهِيَ نَظْمٌ لـ"لُحُوطًا فِي الْبَلَاغَةِ"، كِلَاهُمَا لِلشَّيْخِ سَلِيمَانَ الْعُيُونِيِّ حَفَظَهُ اللَّهُ.

وتنتقل بعد ذلك إلى "الجوهر المكنون" للأخضري، أو تنتقل مباشرة إلى "تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني، وجهود عامة البلاغيين بعد الخطيب القزويني حتى يوم الناس هذا تدور إقرأً وشرحاً وتعليقاً على "تلخيص المفتاح" للقزويني، وكتابه الآخر الذي هو كالشرح له وهو "الإيضاح" حتى صار كتابه "تلخيص المفتاح" عند البلاغيين بمثابة "مقدمة ابن الصلاح" عند المحدثين، و"جمع الجوامع" عند الأصوليين، فكثرت أنظامه وشروحه.

وإذا درست البلاغة على هذه الطريقة التي جرى عليها المتأخرون، ووفقك الله لذلك، فلا يفتك أن تقرأ للمؤسس الحقيقي لعلم البلاغة، الذي بسط القول فيه بقلمه الممتع، ورفع قواعده، وأحكم بناءه، وهو شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: "دلائل الإعجاز" في علم المعاني، و"أسرار البلاغة" في علم البيان، وقد أرسى فيهما قواعد علمي المعاني والبيان.

ولا يكفي المشتغل بالبلاغة العلم بقواعد البلاغة حتى يجعل بضميمة ذلك أن يحرص على تنمية ذوقه، وذلك بالاشتغال بالكلام البليغ قراءةً وحفظاً وسماعاً؛ لذا سيأتي — إن شاء الله — الكلام عن علم الأدب بعد الكلام عن علم متن اللغة.

علم متن اللغة، ومنهجية دراسته:

العلم الرابع: علم متن اللغة أي: علم معاني المفردات، ويُحصَلُ هذا العلم عن طريق دراسة أشعار العرب؛ كقصيدة "بانت سعاد"، و"لامية العرب"، و"المعلقات"، وأيضاً بدراسة مباحث مُعَيَّنة من مباحث اللغة؛ كـ"المثلثات"، و"المقصود والممدود"، ونحو ذلك. ويكون ذلك بعد دراسة قدرٍ صالحٍ من النحو والصرف والبلاغة، ويكثرُ مع ذلك من الرجوع إلى معجمات اللغة؛ كـ"المصباح المنير"، و"مختار الصحاح"، و"القاموس المحيط"، يُكثرُ من الرجوع إليها فيما يعرضُ له في قراءته ودراسته في يومه وليلته من كلماتٍ يحتاجُ إلى معرفة معناها في القرآن أو الحديث أو كتب الأدب ودواوين الشعر، وقد لا يجدُ بُغيته فيها، فيرجعُ إلى ما هو أكبرُ منها؛ كـ"لسان العرب" و"تاج العروس".

مكانة علم الأدب، ومنهجية دراسته:

العِلْمُ الخامس: علمُ الأدب، حَرِيٌّ بطلَبَةِ العلمِ المشتغلينَ بفُنُونِ الشريعةِ من فقهٍ وغيره أن يُرطَّبوا مشاعرهم بنفحاتِ الأدبِ، حتى يَعذَّبَ قلوبهم، وتَحْمَلِ عباراتهم، ويَحْلُوَ تَقْرِيرُهُمْ لحقائقِ العلمِ، فَتَقَعَ من القلوبِ موقعَ القطرِ من الأرضِ العطشى، كما كان ابنُ عَبَّاسٍ -رضيَ اللهُ عنهما-، وغيره ممن بعده من علماءِ الأُمَّةِ الذين إذا سمعتَ كلامهم تَجِدُ له أَرْجِيئَةً وَأُنْسًا في نفسك، وفي ابنِ عَبَّاسٍ -رضيَ اللهُ عنهما- يقولُ حَسَّانُ رضيَ اللهُ عنه:

إذا ما ابنُ عَبَّاسٍ بدا لك وَجْهُهُ رأيتَ لَهُ في كُلِّ أحوالِهِ فَضْلاً
إذا قالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقالاً لِقائِلٍ بِمُنْتَظَماتٍ لا تَرى بَيْنَها فَضْلاً
كَفى وَشَفَى ما في النُّفوسِ فَلَمْ يَدَعْ لَدِي إِرْبَةً في القَوْلِ جِداً ولا هَزْلاً
وقد قال ابنُ السَّيِّدِ البَطْلِيُّوسِي: "الطَّرِيقَةُ الفِقهِيَّةُ مُفْتَقِرَةٌ إلى عِلْمِ الأدبِ، مُؤَسَّسَةٌ

على أصولِ كلامِ العَرَبِ، وإِنَّمَا مَثَلُها وَمَثَلُهُ قولُ أَبِي الأَسود:

فإِلا يَكُنْها أو تَكُنْها فَإِنَّهُ أَخوها غَدَتُهُ أُمُّهُ بِلِباها

فينبغي لطالبِ العِلْمِ أن يَحْرِصَ على تَنْمِيَةِ ذَوْقِهِ، وذلك بالاشتغالِ بالكلامِ البليغِ قِراءةً وَحِفْظاً وَسَماعاً، فَإِنَّ الكَلَامَ من الكَلَامِ، الكلامُ الذي تَقولُهُ وتَكْتُبُهُ وتَنْظِمُهُ هو من الكلامِ الذي تَقْرؤُهُ وتَحْفَظُهُ وتَسْمَعُهُ، فَمَنْ تَعَوَّدَ القِراءةَ للكلامِ العالِي جادَتْ قَرِيحَتُهُ بَنَحَوْ ما يَقْرَأُ، لكن يَنْبَغِي أن تَعْتَنِيَ أَوَّلًا بأفصحِ الكلامِ وأبْلَغِهِ، وهو القرآنُ الكريمُ، ثُمَّ بالصحيحِ من سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَسْتَكْثِرُ مع ذلك من المحفوظِ، فتَحْفَظُ ما يَرِوْقُكَ من الشِّعْرِ المَنْتَقَى المختارِ، وتُكثِرُ من القِراءةِ في كُتُبِ الأدبِ.

ولا بُدَّ أن يَضُمَّ المتأدِّبُ إلى القراءة الأدبيَّةِ الواسعةِ ما لا بُدَّ منه من مسائلِ النَّحوِ التي يَسَلِّمُ بها من اللَّحَنِ في الكلامِ، ومن مسائلِ الصَّرْفِ التي يَسَلِّمُ بها من الغلطِ في بنيةِ الكلمةِ، ومن مسائلِ البلاغةِ التي يَتَذَوِّقُ بها الكلامَ، فيدرُسُ مختصراً في النَّحوِ، وفي الصَّرْفِ، وفي البلاغةِ —على الوجهِ الذي سبقَ— فإذا حصلَ ذلكَ مع القراءةِ الأدبيَّةِ الواسعةِ، أعانَهُ ذلكَ على أن يُعبِّرَ عن مكنوناته وخَلَجَاتِ نفسِه تعبيراً واضحاً بيّناً، يأخذُ بأطرافِ الحُسْنِ، ويتزيَّنُ بحُلَى الفصاحةِ.

وقد قال الرَّافعيُّ: "ما أرى أحداً يُفلِحُ في الكتابةِ والتأليفِ إلَّا إذا حَكَمَ على نفسه حكماً نافذاً بالأشغالِ الشاقَّةِ الأدبيَّةِ، كما تحكُمُ المحاكمُ بالأشغالِ الشاقَّةِ البدنيَّةِ"، والمقصودُ: أنَّك لن تُنمِّيَ ملكةَ الأدبِ في نفسك وتُقوِّمَها بمثلِ إدمانِ القراءةِ المتأنيَّةِ لكتبِ الأدبِ الحرَّةِ الأصيلَةِ، مع حفظِ ما تستحسِنُه ممَّا يَمُرُّ بك من الأشعارِ، وتكرارِ ما تستعذِّبُه من الأخبارِ، تُدَوِّنُه عندَكَ في غلافِ الكتابِ أو في أوراقٍ مستقلَّةٍ، ولن تَزَالَ كذلكَ ترتعُ في رياضِ الأدبِ، وتكرعُ من حياضِه، وتنتقلُ من كتابٍ أدبيٍّ إلى آخرٍ، حتى ينقادَ منك الطَّبْعُ، وتنهَضَ المَلَكَةُ، وترى جمالَ اللسانِ، وترتاضَ على البيانِ، ويجريَ قلمُك على السَّدادِ، وتُمَدِّكُ القريحَةُ بالأمدادِ.

وأما ماذا يَقْرَأُ؟ فعِلْمُ الأدبِ بحرٌ واسعٌ، والقراءةُ الأدبيَّةُ تَتَسِمُ بحسنةٍ، وهي أنَّه ليس فيها ذاكَ التَّدْرُجُ اللازمُ الذي تراه في غيرها من الفنونِ، نعم، ينبغي البدءُ بصغارِ الكتبِ قبلَ كبارها، وبسيرها قبلَ عَويصها.

ومن أحسن ما يُبدأ به من كُتب الأدب: كتاب "روضة العقلاء" للإمام الحافظ أبي حاتم ابن حبان صاحب "الصحيح" وقد بناه على مقدمة وخمسين باباً، ذكر في المقدمة غرضه من تأليف كتابه، وهو أن يُبين ما يحسن بالعقل استعماله من الخصال الحمودة، ويُقبح به إتيائه من الخلال المذمومة، ثم عقد خمسين باباً فيما يحب على العقل التحلي به، وما ينبغي له التحلي عنه، يقول -مثلاً-: "باب في إصلاح السرائر، باب في لزوم الصديق، باب في لزوم التواضع، باب في الحث على صُحبة الأخيار، باب في زيارة الإخوان، باب في المزاح، باب في الزجر عن معاداة الرجال، باب في العفو عن الإخوان..." وهكذا، فيبدأ الباب بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر من الآثار عن السلف، والحكم والأشعار ما يشهد لما ترجم به، يروي كل ذلك من أخبار وآثار وأشعار بإسناده، ويثري ذلك بكلام عالٍ له، من خلاصة تجربته، وعُصارة فكره، لا يقلُّ قيمةً عن النصوص الأدبية التي يُوردها.

ومن كُتب الأدب النافعة: كتاب "بَهجة المجالس" للإمام الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-، وقد كان -رحمه الله- موقفاً في التأليف مُعاناً عليه، فهو صاحب "التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، و"الاستذكار في مذاهب فقهاء الأمصار"، كلاهما في شرح موطأ الإمام مالك، و"الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، و"جامع بيان العلم وفضله"، وهو مع ذلك في حلبة الأدب فارس، وكفاك دليلاً كتابه "بَهجة المجالس" وهذا الكتاب موسوعة أدبية، وقد جعله على الأبواب، يفتح كل باب منها بآية أو حديث غالباً، ثم يُورد من أنواع الحكم التي تُحيي النفس والقلب، وتُشحذ الذهن واللب، وتبعث على المكارم، وتنهى عن الدنایا والمَحارم، من الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والفصول الشريفة، والأخبار الطريفة، من حكم الحكماء، وكلام الألباء، من أئمة السلف، وصالحي الخلف؛ ليكون لمن وعاه زيناً في مجالسه، وأنساً لمجالسه، وشحذاً لذهنه وهاجسه، فلا يمر به معنى في الأغلب مما يُذكر به، إلا حضره فيه بيت نادر، أو مثل سائر، أو حكاية مُستطرفة، أو حكمة مُستحسنة، يحسن موقعها في الأسماع، وتخف على النفس والطباع.

وصَنِّعْ هؤلاء العلماء والحفَّاظ في عنايتهم بالأدب، وأَنْتَ لم يكنِ الاشتغالَ بمَتْنِ العلمِ لِيَحُولَ بينهم وبينَ تَخْيِيرِ المنتقى المُستجَادِ من الأدبِ، وتَأليفِهِم فيه، وإِجَادَتِهِم، صَنِيعُهُم هذا دَلِيلٌ على مكانةِ الأدبِ، وأنَّ الاشتغالَ به ليس عبثًا ولا مَضِيعَةً لِلوَقْتِ، بل هو من صَمِيمِ بِنَائِكَ الْعِلْمِيَّ يا طَالِبَ الْعِلْمِ، وليس بِلازِمٍ بل وليس مطلوبًا أن تكونَ لك حُطَّةٌ مُفَصَّلَةٌ واضحةٌ فيما تَقْرَأُ في الأدبِ، بل المطلوبُ أن تَبْدَأَ، فإذا سِرْتَ في هذا الدَّرَجِ فَإِنَّكَ ستَعْرِفُ بعدَ ذلك طَرِيقَكَ إِنْ شاءَ اللهُ، ولا يَكُنْ أَحَدُنَا كما قال القائلُ:

طَلَبْتَ الْجَمِيعَ فَفَاتَ الْجَمِيعُ فَلَا أَنْتَ حَصَلْتَ هَذَا وَلَا ذَا

بل اَبْدَأْ وستَعْرِفُ طَرِيقَكَ بعدَ ذلك إِنْ شاءَ اللهُ.

فهذه العلومُ الخمسةُ: النحوُ، والصرفُ، والبلاغةُ، وَمَتْنُ اللُّغَةِ، والأدبُ، هي أَهْمُ علومِ الْعَرَبِيَّةِ، وبعدها علومٌ أُخْرَى من علومِ الْعَرَبِيَّةِ، كـ "العروضِ والقافية" التي تَعْرِفُ بها صَحِيحَ أَوْزَانِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ وفاسدها، وعِلْمُ "الإِملَاءِ" الذي لا يَسْتَغْنِي عنه كَاتِبٌ، إِلَّا أَنْ الْعِلْمَ السَّابِقَةَ هي أَهْمُ علومِ الْعَرَبِيَّةِ.

ولَعَلِّي قد أَطَلْتُ، هذا وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا جَمِيعًا الْعِلْمَ النَافِعَ، وَالْعَمَلَ الصَالِحَ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَجَزَاكُمُ اللهُ خَيْرًا.

